قراءة نقدية

**إستهلاك المستقبل .. غربة حبيب الصايغ المضاعفة**

قراءة : د. محمد عبدالقادر سبيل – السودان

Msabeel2014@gmail.com

**أصطفي من أهلّة مستقبلي واحداً**

**الهلالَ المشاغب**

**أبنيه وحياً جديداً وأسكنُه** ( من مجموعة "غد" لحبيب الصايغ)

استدعاء الغد ومحاولة التدخل للتعامل مع احتمالاته الممكنة، وكأنما هو الآن، إنما هو حديث عن نظرية استشراف المستقبل future foresight، ذلك لأن تعريف استشراف المستقبل يمكن تلخيصه في كونه «عملية تبني المنهجيات والأساليب العلمية لمحاولة فهم التطورات التي ستحدث في المستقبل، وتقليل نسبة الغموض وعدم اليقين فيه بغرض الاستعداد والتخطيط لتلك التطورات لمدة تتجاوز العقدين". (1)

هذا التعريف من شأنه أن يضع حدوداً حاسمة بين الحلم والعلم، بين الأماني الرومانسية الوردية التي تليق بالشعر وبين واقعية رسم خطوط الغد المبتغى، وتلك هي صناعة المستقبل عبر إعمال الأدوات المنهجية الحديثة وفي مقدمتها منهج التخطيط بالسيناريوهات.

**وسيناريوهات المستقبل هي وصف لوضع ممكن أو مرغوب فيه، وهي في الوقت ذاته توضيح لخصائص المسار أو المسارات التي تؤدي الى الهدف الاستراتيجي، بدءا من الوضع الراهن.(2)**

**طريقة دلفي:**

طريقة دلفي (Delphi) تعتبر من أهم الطرق التي تستخدم في استشراف المستقبل ورسم السياسات والبدائل، وتستفيد من أحكام الخبراء وخبرة الحكماء وهي من أفضل الأساليب وأقصرها وقتاً للوصول إلى رسم التصورات والاتجاهات المستقبلية، وقد بدأ استخدامها في خمسينات القرن الماضي في المجالات العسكرية عن طريق مركز راند (RAND Corporation)بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم انتشرت في مجال التعليم والاقتصاد والتطوير التكنولوجي والعلمي والاجتماعي والسياسي والصناعي والتخطيط الإستراتيجي في الشركات والمنظمات الكبرى.

يستخدم في هذه الطريقة برنامج يصمم بعناية ويشتمل على عدة استبانات يتم طرحها على الخبراء مع استمرار دراستها وإرجاعها حتى ينضج الموضوع المراد دراسته والوصول إلى صورة أكثر وضوحا للمستقبل الممكن أو المرغوب فيه بعد الحصول على اكبر قدر ممكن من آراء الخبراء، وتقوم هذه الطريقة على اعتبارات فلسفية أساسها أن رأي الاثنين أفضل من رأي احدهما، وأن آراء الخبراء وأحكامهم موضوعية ويقل فيها التخمين.(3)

فإين موقع الأدب عموماً والشعر خاصة من هذا؟ وهل نبالغ حين نقول إن الشاعر هو أولى بالاستبصار والحكمة والرؤيا من غيره؟، وأن ارتباطه بالتشوفات والاستشراف أقوى وأحق من خبراء آخرين يعول عليهم بهذا الشأن؟، خاصة في حال احتكمنا الى تاريخ الشعر العربي وشعرائه ، ولطالما نشدوا وأنشدوا المستقبل وآفاقه؟.

يقول الشاعر الاماراتي حبيب يوسف الصايغ:

**الغد الطفل هل يكبر الآن حتى أحادثه**

**وألامسه**

**وأبادله الأسطوانات؟**

**الغد الطفل هل يكبر اليوم**

**حتى اصارحه:**

**أنت لي أم عليّ؟ (4)**

صحيح أن غاستون باشلار في كتابه الشهير( شاعرية احلام اليقظة) قد تناول موضوع التخييل الشاعرى، وحاول إظهار أهمية المنهج الظاهراتى (الفينومينولوجيا) فى دراسات على هذا الصعيد ليوضح سيرورة وعى الذات المعجبة بالصور الشاعرية ، وكيف أن الشاعر يقدم لنا صوراً ما كان لنا أن نتخيلها من قبل، وذلك كله في اطار اجتراح واقع مبتكر نعيشه بلذة للحظات.(5)

إلا أن هذا ليس ما اقصده ههنا ، وأنما التمس في قصائد الشاعر حبيب حالة تتجاوز مجرد أحلام اليقظة، نحو الاستجلاء والبحث عن تقليل درجة اللايقين تجاه مآلات المستقبل لأنه يريد المستقبل الذي يريده، لا سواه، نعم الى هذا الحد البعيد والمذهل يبدو الشاعر متشبثاً بالغد ومنتمياً إليه، وهو من اصدر مجموعة شعرية اطلق عليها هذا الاسم (غد) صدرت عام 1996م، بل ويريد هذا الغد الآن الآن وليس غداً

**يقول:**

**غد بين حرفيه أمضي وحيداً، وأسكنه ناتئاً في المكان كقبر الشهيد وأمضي**

**غد من صهيل الفرح**

**غد وصفه ممكن**

هذا بالضبط ما تقوم به منهجيات استشراف المستقبل ( وصف المستقبل باعتباره ممكناً) وفي الحقيقة فإن حبيب الشاعر يذهب أعمق من ذلك إلى درجة أن يحب محبوبته بشروط مستقبلية:

**في اتحادك بي نولد اثنين:**

**غداً وغداً !**

**واحداً ينتمي، وواحدةً تقرأ الكف والوجه**

بعد هذا ألا يحق لنا أن نزعم أن هنالك إستشرافاً أدبياً للمستقبل؟ أو ربما هنالك أدباء مهدوا فعلاً الطريق لتغيير الواقع من خلال طرح سيناريوهات بديلة تبناها التنفيذيون لاحقاً وصنعوا بها المستقبل؟

الإجابة: بلى.

**الإستشراف الأدبي:**

أدب الخيال العلمي الذي ذاع وانتشر خلال القرن التاسع عشر يعد فاتحة حقيقية للجمع بين الخيال/ الحلم من جهة والقوانين والحقائق العلمية من جهة أخرى، وبالتالي فإن التطلع للمستقبل وفرصه الممكنه قد تحقق في حقل أدب الخيال العلمي قبل ظهور اسهامات علم استشراف المستقبل في النصف الثاني من القرن العشرين.

وأدب الخيال العلمي Science Fiction هو نوع من الفن الأدبي الذي يتخيّل فيه المؤلف عالماً جديداً بالاعتماد على النظريات العلميّة، وقد يتخيّل نموذجاً لحياةٍ أخرى بالاستناد إلى نتائج مُتّسقةٍ مع قوانين الطبيعة والنظريات العلميّة، وفي العادة يكون زمن هذه القصص في المستقبل القريب أو البعيد، أمّا مكانها فقد يكون على كوكب الأرض، أو في الفضاء.(6)

ولعل القاسم المشترك بين الاستشراف وأدب الخيال العلمي، هو أن الإستشراف يجمع بين الرؤية والإدوات المنهجية التي توفر السيناريوهات بصورة علمية وعملية،وتمهد للخطط الاستراتيجية وصولاً إلى تلك الرؤية بعيد المدى، بينما قصص الخيال العلمي توفر لنا فقط متعة السباحة الخيالية في عوالم غير واقعية ولكنها محتملة اعتماداً على نظريات علمية ، دون ان تتبعها خطط استراتيجية بالضرورة كما هي حال علم استشراف المستقبل.

وبالتالي فإن عنصر الواقعية والغائية هما من أهم الفروق بينهما.

ورغم ذلك فإن الإستشرافيين وصناع المستقبل futurists، استلهموا العديد من قصص الخيال العلمي في مشاريع جرى تبنيها وتنفيذ فرضياتها ( مثل سيناريو فيلم حرب النجوم مثلا) من خلال خطط استراتيجية حولت الحلم والخيال الى هدف قابل للتحقيق وقد كان.

وبنظرة سريعة الى الوراء نحو تاريخ أدب الخيال العلمي نكتشف أن [قصة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%B5%D8%A9) [رحلات غوليفر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A7%D8%AA_%D8%BA%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%81%D8%B1) المنشورة عام (1726) للكاتب الإنكليزي [جوناثان سويفت](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%88%D9%86%D8%A7%D8%AB%D8%A7%D9%86_%D8%B3%D9%88%D9%8A%D9%81%D8%AA) تعد واحدة من أوائل أعمال أدب الخيال العلمي، بجانب قصة [ميكروميجاس](https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D9%85%D9%8A%D9%83%D8%B1%D9%88%D9%85%D9%8A%D8%AC%D8%A7%D8%B3&action=edit&redlink=1) ([1752](https://ar.wikipedia.org/wiki/1752)) للكاتب والفيلسوف الفرنسي [فولتير](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D9%88%D9%84%D8%AA%D9%8A%D8%B1)، وقصة [صومنيوم](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D9%88%D9%85%D9%86%D9%8A%D9%88%D9%85_(%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9)) التي كتبها [يوهانس كيبلر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%8A%D9%88%D9%87%D8%A7%D9%86%D8%B3_%D9%83%D9%8A%D8%A8%D9%84%D8%B1) بين عامي ([1620](https://ar.wikipedia.org/wiki/1620) - [1630](https://ar.wikipedia.org/wiki/1630)) واعتبر كل من [إسحاق أزيموف](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%B3%D8%AD%D8%A7%D9%82_%D8%A3%D8%B3%D9%8A%D9%85%D9%88%D9%81) [وكارل ساغان](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D8%A7%D8%B1%D9%84_%D8%B3%D8%A7%D8%BA%D8%A7%D9%86) هذه القصة كأول [قصة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%B5%D8%A9) خيال علمي، وهي تصور [رحلة إلى القمر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A9_%D8%A5%D9%84%D9%89_%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%85%D8%B1) وكيفية مشاهدة [حركة الأرض](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8%B1%D9%83%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B1%D8%B6) من هناك، وكذلك [رواية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9) [فرانكنشتاين](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%83%D9%86%D8%B4%D8%AA%D8%A7%D9%8A%D9%86) ([1818](https://ar.wikipedia.org/wiki/1818)) للكاتبة الإنجليزية [ماري شيلي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7%D8%B1%D9%8A_%D8%B4%D9%8A%D9%84%D9%8A)، التي يعتبرها البعض كأول عمل متكامل في حقل الخيال العلمي.

وفي وقت لاحق كتب [إدغار آلان بو](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%AF%D8%BA%D8%A7%D8%B1_%D8%A2%D9%84%D8%A7%D9%86_%D8%A8%D9%88) قصة عن رحلة إلى القمر، فظهرت المزيد من الأمثلة طوال سنوات [القرن التاسع عشر](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%86_19) وكل ذلك قاد صناع الغد الى تحويل هذا الخيال العلمي إلى رؤى لاستراتيجيات صنعت المستقبل.

اذاً فالخيال الإبداعي الأدبي، هو الأب الشرعي لعلم المستقبليات بوجه عام Futurology) ) وهو علم يختص بالمحتمل والممكن والمفضل من المستقبل، والى اطاره العام يأوي علم استشراف المستقبل future foresight.

**حبيب الصايغ مستقبلياً:**

في الحقيقة فإن ظاهرة الشغف، بل ثقافة الانشغال بالمستقبل، ظاهرة اماراتية بامتياز، ولعل قيادة هذا البلد هي خير تعبير عن ذياك الإنشغال اليومي ، ليس بما سيكون فحسب، وانما بما يفضّل أن يكون، ( مهنة صناعة المستقبل) سواء على المستوى الشخصي أو الجماعي، ولا نحتاج كبير جهد وايراد امثلة لنبرهن على رسوخ تلكم الظاهرة كهم عام لصيق بأسلوب حياة المجتمع، إذ يكفي ان تتصفح الجريدة مواقع التواصل الاجتماعي كل صباح أو تشاهد التلفزيون أو تستمع الى الراديو لتعيش في تفاصيل حياة الامارات وشعبها مستقبلاً.

الإمارات مصنع كبير للمستقبل، والكل يعمل فيه لا يني ( مستشرفاً، مخططاً، أو منفذاً لخطة استراتيجية). هذه هي الإمارات، وحبيب الصايغ إنما هو رجل من قومه السباقين الى استدعاء الغد الأجمل، ولقد عاش مثقفاً عضوياً، يقود جهود الثقافة والاعلام والنشر من اجل بلاد رائدة، تقود قاطرة الثقافة العربية، وقد بلغ في ذلك أن قاد فعلاً باقتدار ونباهة نيابة عن وطنه اتحاد الكتاب العرب حتى آخر رمق في حياته.

غير أنه وفي الوقت ذاته فإن الشاعر ظل – على مستوى الخاص- يستهلك أمداء مستقبله يوماً بيوم. فعاش غريبا غربةً مضاعفة، غربة عن الواقع وعن المستسلمين للواقع وشروطه، وغربة أخرى عن الراهن والآن ارتباطاً بالمأمول والإقامة المستغرقة في المستقبل باعتباره الآن، ليكابد وعثاء الخيال وهواجس نزعاته واستبصاراته، حيث يصدح بأنين واضح في قصيدة البراهين ضمن مجموعته "كسر في الوزن" الصادرة عام 2011:

**ويتناولني الغد البردان بمكائده**

**وتسافر بي**

**البراهين تعود الى جحرها أعلى الجبل (7)**

إنه التمثل حد القمة وهنالك يعلن برودة غربته في صقيع الغد المأمول باستمرار، أنظر كيف أن حبيباً يتقدم لاستشرافاته الباذخة في سياقات قصيدة (العابر) الواردة في المجموعة ذاتها..

**ها أنت في موكبك سائر وسائر الأفلاك**

**ها أنت، وتبتعد تاركاً وراءك سيرتك الحسنة**

**وأجراس الملل**

**ها أنت وفي معيتك قمر أكل الحوت نصفه،**

**واستعملت نصفه الثاني في وصف الحبيبة وعدّ الشهور**

ولكن المفاجأة أن حبيباً ينتقل في مرحلة ما من هذا الهاجس الاستشرافي الحثيث ومن مكابدة الحياة المقبلة، إلى الضجر من المستقبل ذاته بحثاً عن مستقبل المستقبل، وهذا ما يؤكد مذهبنا الى أنه بالفعل ويومياً يستهلك ذاك المستقبل ويعيشه الآن الآن وليس غداً يقول متسائلاً في (غد 27):

**هل يعود الماضي في المستقبل؟**

**...**

**هل المستقبل في موعده تماماً**

**بوجهه الكالح أبداً**

**وبدون أقنعة أو مساحيق؟**

**...**

**الطوابير الطويلة المنتظرة، مازالت هناك**

**تؤجل أحلامها**

**وتمسح الغبار عن حقائبها المدرسية**

**وتنتظر. (8)**

**لماذا يساورني الشعور غير المنطقي بأن حبيباً، قد رحل فقط حينما استنفد حصته الكاملة من المستقبل، بعد أن استوفى اركان غربته بيننا. ولكن ما لست متحققا منه هو: هل فعل ذلك كله ياترى على مستوى النص الشعري فقط، أم عاشه على مستوى الواقع الاجتماعي المحيط به أيضاً؟ لست أدري على أية حال، ولكنني أشعر بالخوف حين اسمع صوته وهو يعتذر لحبيبته بأنه لم يملك الوقت يوماً لعيش حياة عادية، ولم يجد الوقت أبداً ليحيا محباً ومحبوباً قال:**

**لم أجد الوقت حتى أحبك**

**أو أتأمل وجهك**

**لم أجد الوقت في زحمة الشغل والموت**

**في اغلب الوقت**

**وأخيراً .....**

**أحث كل من أطال التأمل باستغراب في حياة حبيب ومجرياتها، أن يتفهم السبب الآن، فالرجل كان يعيش تحت الضغط المستمر، ضغط أحلامه وهواجسه والشغل الذي لا يليق به، وضغط تخييل الواقع لعله يستسيغه وضغط الطموح والانتماء الى عالم المستقبل، وما بعده، من مجازفات لا يملك الا ان يخوضها عسى ان ترتاح نفسه ولكن هيهات هيات.**

**مصادر:**

1. **الاستشراف الأدبي،مجلة الامارات غدا، العدد الرابع ، سبتمبر 2019**
2. **موسوعة ويكيبيديا.**
3. **المصدر نفسه.**
4. **مجموعة "غد" لحبيب الصايغ الصادرة عام 1996**
5. **غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، ترجمة زينب الخضيري،  دار شرقيات للنشر والتوزيع.**
6. **قصص الخيال العلمي، موقع (موضوع) على الشبكة العنكبوتية.**
7. **مجموعة حبيب الصايغ "كسر في الوزن" الصادرة عام 2011**
8. **مجموعة (غد) للشاعر.**